مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي

الإيجاز في آيات الإعجاز

للطبيب الشيخ محمد أبي اليسر عابدين
رحمه الله

تحقيق
الشيخ محمد كريم راجح
شيخ القراء بالديار الشامية

دار البشائر
للطباعة والنشر
ص. ب ٤٩٢٦ ـ دمشق

إدارة البحث العلمي و النشاط الثقافي

قسم التحقيق و النشر

مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث

ص.ب(٥٥١٥٦) ـ دبي

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحفُوظَة

الطبعة الثانية

١٤١٩هـ ١٩٩٩م

اهداء من
مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث - دبي
ت : ٢٦٢٥٩٩٩ - ٢٦٢٤٩٩٩(٠٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيجاز في آيات الإعجاز

خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد صاحب القدْر العظيم ، وعلى آله وصحبه الناقلين لنا أحوالَهُ بصدقٍ وتسليم .

وبعد : فإني تلقَّيت علومَ الشريعة على أساتذةٍ ذوي تمكين ، في العلوم الرياضيَّة والطبيعيَّة وعلوم الدين ، لهم الباعُ الأطول في العلوم العقلية والنقلية بلا مدافَع ، وكلٌّ منهم مرجعٌ لأهل عصره بما اختصَّ به بلا ممانع . ثم عانيتُ تدريسَها في الجامعات والجوامع ، وجاهدتُ نفسي لتلقِّيها على هؤلاء الفُضلاء ، وحصلتُ منهم ومن غيرِهم على إجازاتٍ علميةٍ ودوليةٍ في الطب والإفتاء والقضاء ، ثم مارستُ التدريس والطبَّ والفُتيا ، وتركتُ الحُكْمَ لحاكم السماء . ويعلم الله أني ما قصدتُ بما أسلفتُ الإطراءَ والثناء ، وإنما قصدتُ بما علمت ورأيت أنَّ ما أتى به محمد ﷺ لا يمتُّ بصلةٍ لما كان عليه من حياة الأمية والصحراء . فقد كان في حياته ﷺ ينفردُ بعبادة ربِّه في غار حِرَاء ، وكان يرعى الغنم على قراريطَ لقريش بلا خَفَاء . فآمنتُ وصدَّقت أنَّ ما أتى به من هذا الكتاب المعجِز الذي لا يصلُ إليه عقلُ العقلاء ، وغيره من المعجزات التي يستهدي بها الأصدقاء والأعداء ، أنها ليست منه بل من علم ربِّ الأرض والسماء وأدبه . ولو أن المعاندين تركوا العناد والشقاء لعلموا أن ما هُم عليه هُراء في هُراء . فهذا ما وصلتُ إليه بما عانيت ، فالشكر لمستحقِّ الشكر والثناء ﴿ **إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يَهْدي مَنْ يَشَاء** ﴾ [القصص : ٥٦] ؛ وإني إذ بَيَّنْتُ إعجازَ بعضِ آياتِ الكتاب العزيز بدون استقصاء وقفتُ عندما وصلتُ

إليه ، لأنَّ جميع آياته معجزٌ بلا امتراء . لكن الفرق بينها أنَّ بعضَها يُمكن إدراكُ إعجازه لأمثالنا العوامّ ، فآثرتُ جمعَه ليعرفَهُ الخاصُّ والعامّ ؛ وإني أعلم أنَّ كثيراً ممن سبقني خاض هذا البحر بكلِّ إقدام ؛ لكن لكلِّ عصرٍ ومصر ابتكاراتٌ تختلفُ فيها الأفهام ؛ وإني ما خرجتُ عما قاله علماءُ التأويلِ والتفسير ، ولكن زدتُ عليه بما لا يخالف أقوالهم ببيانٍ وتقرير . واللهَ تعالى أسألُ أنْ ينفعَ به الخاصَّ والعامّ ، إنه وليُّ الفضل والإنعام .

هذا وقد رتَّبتُ كتابي على مقدمةٍ وفصول ؛ أما المقدمة ففي معنى التفسير والتأويل وما يتبع ذلك من الأبحاث والفوائد ؛ وأما الفصول ففي أنواع إعجاز القرآن العظيم التي لا تنحصر ، لكنْ ذكرنا تسعةً منها حسبما ألهمنا الله تعالى ، والفصل التاسع من الكتاب هو المقصود ، مع ما يحويه من أبحاثٍ بعدد الآيات المتناسبة في الإعجاز ، فاعلم ذلك بإيجاز .

ومما ينبغي التنبُّه له أنَّ كثيراً من الدجَّالين الكذَّابين أرادوا معارضةَ آيات الكتاب المستبين ، وما هو إلا من تسويلات الشيطان الرجيم ؛ ظنّاً منهم أنَّ كلَّ كلامٍ مرصوفٍ خطابيٍّ بليغٍ هو مثل القرآن الكريم . والجواب عن ذلك أن إعجاز القرآن غيرُ مقتصرٍ على ترصيف الكلام وبلاغته بدون معانٍ مقصودة ، بل كلُّ آيةٍ تدلُّ على معنًى غيرِ الآخر ، هو في نفسه بليغ ؛ فلو أراد أحدٌ معارضة قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [العنكبوت : ٦٢] **فلعمري ماذا يقول ؟.ا.هـ .**

فمعجزةُ هذه الآية بقطعِ النظر عن اختصارها وبلاغتها تدلُّ على معنًى عظيم ، وهو إحاطةُ علمِهِ تعالى بكلِّ شيء فما تعارَضُ هذه الآية المركبة من ثلاث كلمات إلاَّ بضدِّها وهو الكذبُ والاختلاق ، وإني لم أر آيةً خاليةً من معنًى معجزٍ لو أراد أيُّ بشرٍ معارضتَها ، فإنّما يعارضُها بالكذب والبُهتان ؛ فإذا قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ** ﴾ [المرسلات : ١٠] **فماذا يُقال بمعارضتها ؟**

هل يُقال إلا شيءٌ يقرِّرُها أو يناقضها ؟ فإذا قرَّرها فهي وافية كافية ، لا يمكنُ أن يؤدَّى هذا المعنى بأبلغ منها ، وإذا كذَّبها فهو الكاذب المفتري فنسأل **الله تعالى أن يُرينا الحقَّ حقاً ويرزقنا اتباعه بمنِّه وكرمه ، هذا ومما ينبغي أن يُعلم** أني لم أقصد بهذا الكتاب إثباتَ إعجازِ آياتِ الله تعالى لأتوصَّل به لإثبات نبوَّةِ النَّبيِّ الصادق الذي أتى به ، إذ إعجازُ القرآن فوقَ ما أقول وفوق ما تدركه العقول ، بل قد أكون مخطئاً فيما يقتضي أن أجول ، ولكنَّ قصدي بيانُ **ما حاك في ذهني من معقولٍ ومنقول . نعم إن هذا القرآن وإن كان هو المعجزةَ العظمى الباقية على مرِّ الدهور ، ولكنْ ثمة معجزةٌ أبسط من كلِّ معلومٍ ومجهول تدلُّ على صدقِ هذا النبيِّ الرسول ﷺ وشرف وكرم ألا وهي حياتُه وسيرتُها بلا تكلُّف ولا فضول ، ورحم الله من ألَّف كتب الموالد والمعارج لأنها** وافيةٌ بالمقصود ، ولا سيما شرحُ معراجِ ابن حجر ، لسيدي الجدّ الشيخ أحمد عابدين تلميذ عمِّه العلامة ابن عابدين رحمه الله .

وإنا إذا نظرنا في سيرة حياته ﷺ فإنه نشأ يتيماً أمياً يرعى الغنم لقريش ، **لا يألف أحداً منفرداً في الغار فبحثنا بأصل خلقته لما جبل عليه قومه الكفار ، وأتينا برجل مثله عاش بمثل هذا الحال ؛ فإني أسأل من يضطلع بهذا السؤال ،** كيف تكون مداركه وعقليته وفهمه وعلمه بين الأمثال ...؟ لعمري يكون الجواب أنه من أعظم الجهال ، بل من أكبر أعداء الإنسانية وأعظم الوبال . بينما ترى هذا الرجل الذي عاش ونشأ بمثل ما ذكرنا من الأحوال أتانا بشيء ما سبقه بمثله بشر من الرجال ، من علمٍ وتقوى وجمعِ كلمةٍ وإصلاحٍ وبلاغةٍ وفصاحةٍ وزُهْد ، وهديٍ لغيره بكلِّ اعتدال ؛ مما يقطع لمن يتتبَّع هذه السيرة الشريفة أنَّ ما أتى به ليس من عنده ، بل هو من عند خالقه ذي العظمة والجلالة ، ووالله إنَّ سيرته وحدَها هي الكافيةُ الوافية دليلاً على صدقِه وصدقِ نبوته ، وإنَّ من لم يتبعه إنما هو معاندٌ ضالّ ﴿ **إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أحببتَ ولكنَّ الله**

يَهْدي مَنْ يَشَاء ﴾ [القصص : ٥٦] والحمد لله على كل حال .

أما كون هذا القرآن معجزاً و دليلاً على صحة دين الإسلام ؛ فلعمري لو تجرَّد الإنسان عن كلِّ مرجِّح لدينٍ من الأديان أو مذهبٍ من المذاهب ، ونظر نظرةَ مُنْصفٍ في هذا القرآن العظيم لاكتفى به دليلاً على صحة دين الإسلام ، ولا يحتاج إلى دليلٍ آخر أو برهان . قال الله تعالى في كتابه الكريم بسورة فاطر : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ أنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ﴾ [فاطر : ١٥] لماذا قال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ ﴾ ولم يقل يا أيها المخلوقات ؟ لماذا قال : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ ﴾ ولم يقل يا أيها الملائكة ؟ لماذا قال : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ ﴾ ولم يقل يا أيها الجن ؟ لماذا قال ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ ﴾ ولم يقل يا أيها الحيوان ؟

الجواب أنَّ الناس هم الفقراءُ إلى الله بكلِّ شيء ، وبكلِّ حركةٍ وسكونٍ أكثر من سواهم ، الناس يحتاجون إلى أشياء لا تحصى مما لا يحتاجه سواهم ، الناس يحتاجون إلى الطعام والشراب والكسوة والمسكن والفلاح وفصل الخصومات والتناصر والتعاون وتسهيل المعاملات وغير ذلك مما لا يحصى ؛ فالملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يحتاجون لسكن ولا لألبسة ، ولا لآلات لتهيئة هذه الأمور ، ولا يحصل بينهم خصومات ولا مشاكل ولا حروب ، وليس فيهم فقير ولا غني ولا ظلم ولا طبيب ولا جرّاح ولا حراث ولا بيطار ولا حداد ولا طباخ ولا حرب ولا سلم ، ثم انظر إلى الجن ترى كثيراً **ما يحتاجه البشر هم في غنًى عنه ، ثم انظر إلى الحيوانات تَرَ أكثر ما يحتاجُه البشر هم في غنًى عنه أيضاً ، ولو نظرتَ إلى سائر مخلوقات الله وقستَها إلى البشر** لتجلَّى لك هذا الأمر بكلِّ مظاهره مما لا يحتاج إلى تفصيل وتعداد ، ووالله لو تجرد كلُّ إنسانٍ عن كلِّ داعية وكلِّ مرجع وكلِّ تعصُّب ، وخلا بنفسه لما وجد أكثر إعجازاً من هذا القرآن ، ولما وجد أكمل من دين الإسلام ، ولما وجد أصدق من محمد عليه الصلاة والسلام ، وكم في القرآن من أخبارٍ غيبيَّة أخبر

عنها رسولُ الله ﷺ قبل وقوعِها ، فارجعْ أيها المعاندُ ، وأيها الحائرُ إلى الحق الذي لا محيدَ عنه ، وأشفِقْ على نفسك مما تقع فيه بحياتك الباقية بعد حياتك الفانية .

وما المرءُ إلا راكبٌ ظهرَ عُمرِهِ على سفرٍ يُضنيهِ في اليومِ والشهرِ
يبيتُ ويحيا كلَّ يومٍ وليلةٍ بعيداً من الدنيا قريباً من القبرِ

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ** ﴾ [يوسف : ٨٤] تر العجب ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ [الأنعام : ١٢٥] تر الأعجب .

وكذا قوله تعالى آخر سورة النحل : ﴿ **واصبرْ وما صَبْرُكَ إلا بالله ولا تحزَنْ عليهم ولاتَكُ في ضَيْقٍ مما يَمْكُرون إنَّ الله معَ الذينَ اتقَوْا والذينَ هم مُحْسِنون** ﴾ وذلك أن الإنسان يحزَنُ ويغضب ممن يكذبه ، ويتمنَّى زواله وذهابه ، ولكن لا يحزن عليه إذا أصابه ما يشفي غليله منه ، أمَّا هذه الآية فدليلٌ على عظمة محمد ﷺ ورحمته وشفقته على أمته ، فإنه ﷺ كان يحزن عليهم بتكذيبهم إياه خوفَ أن يصيبَهُمُ العذابُ أكثرَ من حزنه من تكذيبهم والآية صريحةٌ بذلك ، فإنه تعالى يقول : ﴿ **وَلا تَحزَنْ عَليهِمْ** ﴾ [النحل : ١٢٧] تسليةً له لما يصيبهم ، وليس هو أمراً بعدم الحزن منهم ؛ وفَرْقٌ بين الحزن عليهم والحزن منهم ؛ فإنَّ الحزن عليهم يدلُّ على الشفقةِ والرحمة والعطف الذي جُبل عليه ﷺ على أمته أن ينالهم عذابُ الدنيا والآخرة ، وفَرْقٌ بينه وبين الحزن منهم المستوجب للغضب والانتقام ، فالله سبحانه يقول لنبيه : ﴿ **لَعلَّكَ باخِعٌ نَفسكَ ألاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنينَ** ﴾ [الشعراء : ٣] أي قاتل نفسك عليهم .

بسم الله الرحمن الرحيم
المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

اعلم أن علم التفسير هو علم باحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية . وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية كما في كشف الظنون ، ونقل عن الفناري أن الأولى أن يقال : علم التفسير معرفة أحوال كلام الله سبحانه وتعالى بقدر الطاقة الإنسانية .

وفي الشهاب : ما يعرف به معَانَي كلام الله أو ألفاظه[1] بحسب الطاقة البشرية . قال : ولا يخفى ما فيه ، فإن أحداً لم يعدَّ القراءاتِ من التفسير .

وقال في الإتقان : التفسير تفعيل من الفَسْر وهو البيان والكشف ، والتأويل من الأَوْل ، وهو الرجوع ، فكأنه صرفَ الآية إلى ما تحتمله من المعاني . واختلف في التفسير والتأويل . فقال أبو عبيد وطائفة : هما بمعنى . وقد أنكر ذلك قوم ، حتى بالغ ابن حبيب النيسابوري فقال : قد نبغ في زماننا مفسِّرون لو سُئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدَوا إليه . وقال بعضهم : التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة ، إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة . وقال الماتُرِيدي : التفسير : القَطْعُ على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه عَنَى باللفظ هذا . فإنْ قام دليلٌ

(١) معاني ألفاظه لا تعني القراءات بحال . أما القراءات فهي وجوه النطق به .

مقطوعٌ به فصحيح ، وإلا فتفسيرٌ بالرأي وهو المنهيُّ عنه . والتأويل : ترجيحُ أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله . إلى آخر ما أطال صاحب الإتقان في ذلك .

ثم ذكر من شروط التفسير أن يُفسَّرَ القرآنُ بالقرآن نحو قوله تعالى : ﴿ **أُحلَّت لَكُم بَهِيمَةُ الأَنعَامِ إلاَّ مَا يُتلَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ [المائدة : ١٠٦] فسره قوله تعالى : ﴿ **حُرِّمَت عَليكُم المَيتَةُ والدَّمُ ولَحمُ الخِنزِيرِ** ﴾ [المائدة : ١٠٧] ، وقوله تعالى : ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ** ﴾ [البقرة : ٦٧] فسرها قوله تعالى ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِر لَنا وَتَرحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ **صِراطَ الَّذينَ أَنْعمتَ عَلَيهِم** ﴾ [الفاتحة : ٧] فسرها قوله تعالى : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعمَ اللهُ عَليهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهدَاءِ وَالصَّالِحينَ** ﴾ [النساء : ٦٩] .

فإنْ لم يوجدِ البيان في القرآن يُصار إلى السُّنَّة ، كبيانِ الصلاة وعددِها وعددِ ركعاتها ، والزكاةِ ومقاديرها ، والحجِّ وكيفيته . وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : كلُّ ما حَكَمَ به رسولُ اللهِ ﷺ فهو مما فهم من القرآن . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنْزلنَا إليكَ الكِتابَ بِالحَقِّ لِتحكُمَ بَينَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ** ﴾ [النساء : ١٠٥] في آيات أخر ، وقال ﷺ : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » ، يعني السنة[1] .

فإنْ لم يجدْ من السُّنَّة رجَعَ إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله . وقد روى الحاكم في المستدرك أن تفسيرَ الصحابيِّ الذي شهِدَ الوحيَ والتنزيل ، له حُكْمُ المرفوع . اهـ .

وإنْ تعارضتْ رُدَّ الأمر إلى ما ثبتَ فيه السمع ، فإن لم يجد سمعاً وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدِهما رُجِّح ما قَوِي الاستدلالُ فيه ، كاختلافهم

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » وأبو داود بلفظ « أوتيت الكتاب » .

في معنى حروف الهجاء ، يرجَّحُ قولُ من قال إنها قَسَم . وإن تعارضت الأدلة في المراد علم أنه قد اشتبه عليه ، فيؤمن بمرادِ الله تعالى ولا يتهجَّمُ على تعيينه ، وينزِّلُه منزلةَ المجمل قبل تفصيله ، والمتشابه قبل تبيينه .

ثم نقل صاحب الإتقان عن ابن تيمية أنه يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيَّن **لأصحابه معانيَ القرآن كما بيَّنَ لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : ﴿ لتُبيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهِم ﴾** [النحل : ٤٤] يتناول هذا وهذا . وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي : حدثنا الذين كانوا يقرؤون ، كعثمان بن عفان وعبدِ الله بن مسعود وغيرِهما أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبيِّ ﷺ عشرَ آيات لم يتجاوزوها حتى يَعْلَموا ما فيها من العِلْم والعمل . قالوا : فتعلَّمْنا القرآنَ والعِلْم والعَمَل . ولهذا كانوا يبقونَ مُدَّة في حِفْظ السورة .

وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ[1] في أعيننا رواه أحمد في « مسنده » . وأقام عمر على حفظ البقرة ثمان سنين . أخرجه في « الموطأ » . وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ **كتابٌ أنزلناهُ إليك مباركٌ ليدَّبَّروا آياتِه** ﴾ [ص : ٢٩] ، وقال : ﴿ **أفَلا يَتدبَّرونَ القُرآنَ** ﴾ [النساء : ٨٢] .

ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً ، وهو وإنْ كان بين التابعين أكثرَ ، فهو قليلٌ بالنسبة إلى ما بعدهم . ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلَّموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب ما يصحُّ عنهم من الخلاف يرجعُ إلى اختلاف تنوُّعٍ في العبارة مع اتحاد المسمَّى ، لا اختلاف تضادّ ؛ كتفسيرهم الصراط المستقيم بالقرآن ، أو بالإسلام ، أو بالسنة ، أو الجماعة ، أو بطريق العبودية ، أو بطاعة الله ورسوله ؛ فهؤلاء كلُّهم

---

(١) جدَّ : أيْ عَظُمَ في أعيننا وجلَّ قدره فينا وصار ذا جَدّ .

أشارَ إلى ذات واحدة ، لكنْ وصَفَها كلٌّ منهم بصفةٍ من صفاتها . وكذِكْر العام ببعض أنواعه الذي يختاره المفسِّر على سبيل التمثيل لا على سبيل التحديد ، كتمثيل الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ، فالسابق الذي يصلِّي أولَ الوقت ، والمقتصد في أثنائه ، والظالم لنفسه المؤخِّر لاصفرار الشمس ، أو السابق المحسِن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصِد المؤدِّي للزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانعٌ الزكاة .

وهذا هو الغالب في تفسير السلف الذي يُظَنُّ أنه مختلف ، وإنما هو تنوُّع أسماءٍ وصفات ، وقد يكون تفسيرُ لفظٍ يُطلق على معنيين أو يعمُّهما ، ففسَّر كلٌّ واحد من المفسرين بمعنى ، إما لاحتمال الأمرين ، أو لنزول الآية مرَّتين كلفظ ﴿ قَسْوَرَة ﴾ [المدثر : ٥١] يحتمل الرامي ويحتمل الأسد ، وكتفسير ﴿ تُبْسَل ﴾ [الأنعام : ٧٠] تُحْبَس أو تُرْتَهن .

والاختلاف في التفسير على نوعين : الأول ما مستنده النقل ، والثاني ما يُعلم بغير ذلك .

والمنقول إمَّا عن النبي ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين .

فما كان عن النبي ﷺ ولم يمكن معرفةُ الصحيح منه فلا فائدة فيه ، كاختلافهم في لَوْن كلبِ أصحابِ الكهف واسمه ، والبعضِ الذي ضُرِبَ به القتيل من البقرة ، وفي قَدْر سفينة نوح أو خشَبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخَضِر ، وأمثال ذلك .

وما أمكن معرفةُ الصحيح منه فقد قال السيوطي في الإتقان عن ابن تيمية : هو كثيرٌ ولله الحمد . وإن قال الإمام أحمد : ثلاثةٌ ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي .

وما نُقل عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفسُ إليه أركنُ مما نُقل عن التابعين لاحتمالِ سماعِهم من النبي ﷺ أو ممن سمعه منه ، ولأنَّ نقلَهم عن أهل

الكتاب أقلُّ من نقل التابعين ككعب وابنِ مُنَبِّه . حيث يُوقف عن تصديق أمثال ذلك لقوله ﷺ : « إذا حدَّثكم أهلُ الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم »[1] ، وكذا ما نُقل عن التابعين بدون عزوٍ لأهل الكتاب ، ومتى اخْتَلَف التابعون لم يكنْ بعضُهم حجَّةً على بعض .

وأما الثاني الذي يعلم بغير نقل ، فهذا بعدَ الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ؛ والخطأ فيه من وجهين : أحدهما : قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حَمْلَ ألفاظِ القرآن عليها كطوائفِ أهلِ البِدَع ، الذين تأوَّلوا القرآنَ على رأيهم بعباراتٍ حسَنة ، يدسُّون البِدَع في كلامهم .

والوجه الثاني من الخطأ : قومٌ فسَّروا القرآن بمجرد ما يُسَوَّغ أن يريد مَنْ كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظرٍ إلى المتكلم بالقرآن والمُنْزَلِ عليه والمخاطَب به ؛ وهؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة ، كما يغلط الذين قبلهم . هذا خلاصة ما نقله عن ابن تيمية .

ثم نقل عن الزركشي قال : للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة :

الأول : ــ النقل عن النبيِّ ﷺ .

الثاني : ــ الأخذ بقول الصحابي .

الثالث : ــ الأخذ بمطلَق اللغة .

قال بعضهم في جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد . وقيل : الكراهة تُحمل على من صَرَف الآية عن ظاهرها إلى معانٍ خارجةٍ محتملة ، يدلُّ عليها القليلُ من كلام العرب ، ولا يوجد غالباً إلاَّ في الشعر ونحوه ، ويكون المتبادر خلافها .

---

(١) روى الحاكم في مستدركه الحديث بلفظ « إذا حدثكم أهل الكتاب حديثاً فقولوا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

الرابع : ــ التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع ، وهذا هو الذي دعا به النبيُّ ﷺ لابن عباس حيث قال : « اللهم فَقِّهْهُ في الدين **وعلِّمْه التأويل** »(١) . **والذي عناه عليٌّ بقوله : ألا فهماً يؤتاه الرجل في القرآن .**

ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل . قال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيسَ لكَ بهِ عِلمٌ** ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، وقال : ﴿ **وَأَنْ تَقُولُوا عَلى اللهِ مَا لا تَعلمُونَ** ﴾[الأعراف : ٣٣] ، وقال : ﴿ **لتُبيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ** ﴾[النحل : ٤٤] أضاف إليه البيان ، وقال ﷺ : « من تكلَّم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » ، أخرجه أبو داوود والترمذي والنسائي . وقال : « من قال في القرآن بغير علم فَلْيتبَوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النَّار » . أخرجه أبو داود ، وقال البيهقي في الحديث الأول : إنْ صحَّ أراد ــ والله أعلم ــ الرأيَ الذي يغلب من غيرِ دليلٍ قام عليه ، وأما الذي يشدُّه برهان فالقول به جائز . اهـ .

وفي الحديث : « القرآن ذَلُول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسنِ وجوهه » . أخرجه أبو نعيم وغيرُه من حديث ابن عباس ، وفيه دلالةٌ ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد . اهـ .

وقال بعضهم : اختلف الناسُ في تفسير القرآن ، هل يجوز لكلِّ أحدٍ الخوضُ فيه ؟ فقال قوم : لا يجوز . ومنهم من قال : يجوزُ لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج إليها ، كاللغةِ والنحوِ والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع وعلم القراآت وأصولِ الدين وأصولِ الفقه وأسبابِ النزول والناسخِ والمنسوخِ وعلمِ الموهبة ، وهو علم يُورِّثُه الله تعالى لمن عَمِل بما علم ، وإليه الإشارة بحديث : « من عمِل بما علِم وَرَّثَهُ الله علمَ ما لم يعلم »(٢) . وذلك

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أبو نعيم عن أنس .

لأنه لا يحصُل للناظر فهمُ معاني الوحي ، ولا تَظْهَرُ له أسرارُه وفي قلبه بِدْعَة ، أو كِبْر ، أو هَوَى ، أو حبُّ الدنيا ، أو هو مُصِرٌّ على ذنب ، أو غير متحقِّق بالإيمان لقوله تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذينَ يَتكبَّرُونَ في الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ** ﴾[الأعراف : ١٤٦] قال سفيان بن عيينة يقول : أنزِع عنهم فهم القرآن . أخرجه ابن أبي حاتم . انتهى ما نقله السيوطي عن الزركشي مختصراً .

قال السيوطي : وقد أخرج ابنُ جرير وغيرُه من طرق ، عن ابن عباس قال : التفسير أربعةُ أوجه : وجْهٌ تعرفه العربُ من كلامها . وتفسير لا يُعْذَر أحدٌ بجهالته . وتفسيرٌ تعلَمُه العلماء . وتفسيرٌ لا يعلمُه إلا الله تعالى . ثم رواه مرفوعاً بسندٍ ضعيف بلفظ : أُنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسِّرُه العرب ، وتفسير تُفَسِّره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى ؛ ومن ادَّعى عِلْمَه سوى الله تعالى فهو كاذب .

وقال الزركشي في البرهان في قول ابن عباس : هذا تقسيمٌ صحيح .

فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يُرْجَعُ فيه إلى لسانهم ، وذلك اللغة والإعراب ؛ فأما اللغة فعلى المفسِّر معرفةُ معانيها ومسمَّيات أسمائها ، ولا يلزم ذلك القارئ . وأما الإعراب فما كان اختلافُه مُحيلاً للمعنى وجب على المفسِّر والقارئ تعلُّمه .

وأما ما لا يُعذَرُ أحدٌ بجهله فهو ما تتبادرُ الأفهامُ إلى معرفة معناه من النصوص المتضمِّنة شرائعَ الأحكام ودلائلَ التوحيد . وكلُّ لفظٍ أفاد معنًى واحداً جلياً يعلم أنه مراد الله تعالى نحو ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ** ﴾[محمد : ١٩] ، ونحو : ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكَاة** ﴾[البقرة : ٤٣] حيثُ يُدرك معنى التوحيد من الأول ، وإيجاب الصلاة والزكاة من الثاني ، بقطع النظر عما يتعلَّق بهما من المباحث الأخرى .

وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجري مَجْرَى الغُيوب ، نحو الآي المتضمِّنة لقيام الساعة ، وتفسيرِ الحروف المقطَّعة ، وكلِّ متشابِهٍ في القرآن عند أهل الحقّ فلا مساغَ للاجتهاد في تفسيره إلا بالتوقيف بنصٍّ من القرآن أو الحديث أو إجماع الأُمَّة على تأويله .

وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم فهو الذي يغلب عليه إطلاقُ التأويل ، وذلك كاستنباط الأحكام ، وبيان المُجْمَل ، وتخصيصِ العموم ، كالقَرْء للحيض والطُّهْر ، فهذا ما لا يجوز لغيرِ العلماء الاجتهاد فيه ، وعليهم اعتمادُ الشواهد والدلائل دون مجرَّدِ الرأي ، ومع ذلك فالعالِمُ منه على خَطَر ، فعليه أن يقول : يحتمل كذا . ولا يجزم إلا في حُكْمٍ اضْطُرَّ إلى الفتوى به ، فأدَّى اجتهادُه إليه ، فيجزم مع تجويز خلافه . انتهى ما نقل عن الزركشي مختصراً .

وقال ابن النقيب : جُملة ما تحصَّل في معنى حديث : « من قال في القرآن برأيه فأَصَابَ فقد أخطأَ » خمسةُ أقوال :

أحدها : التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير .

الثاني : تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

الثالث : التفسير المقرِّر للمذهب الفاسد ، بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً ، فيردُّ إليه أيَّ طريقٍ أمكنَ وإنْ كان ضعيفاً .

الرابع : التفسير أنَّ مرادَ الله كذا على القطع من غير دليل .

الخامس : التفسير بالاستحسان والهدى .

وقال الزركشي : الحق أنَّ علم التفسير ، منه ما يُتوقَّف على النَّقْل ، كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ، ومنه ما لا يتوقف ، ويكفي في تحصيله الثقةُ على الوَجْه المعتبر ، قال : وكان السببُ في اصطلاح كثيرٍ على

التفرقة بين التفسير والتأويل التمييزَ بين المنقول والمستنبَطِ ليُحمل على الاعتماد في المنقول وعلى النظر في المستنبط . اهـ .

في « الإحياء » ، آخر كتاب آداب القرآن في الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي قال : لعلك تقول عظَّمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه ، فكيف يستحب ذلك وقد قال ﷺ : « مَنْ فَسَّرَ القرآنَ برأيه فلْيتبوَّأْ مقعدَه من النار » . فإنْ صحَّ ما قاله أهلُ التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ، وإنْ لم يصحَّ ذلك فما معنى قوله ﷺ : « من فسَّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؟ فاعلمْ أنَّ من زعم أنْ لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهرُ التفسير فهو مخبرٌ عن حدِّ نفسه ، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ، ولكنَّه مخطئ في الحكم برد الخلق كافَّةً إلى درجته التي هي حدُّه ومطلعه ، بل الأخبار والآثار تدلُّ على أنَّ في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم . قال علي رضي الله عنه : إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال ﷺ : « إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً » . ويروى أيضاً عن ابن مسعود موقوفاً عليه ـ وهو من علماء التفسير ـ فما معنى الظهر والبطن والحدُّ والمطلع ؟ وقال علي رضي الله عنه : لو شئتُ لأوقرْتُ سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار . وقال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً . اهـ .

أما ثبوت هذه الآثار والأخبار وإن كان فيها ضعفٌ ولِين ، لكنَّ كثرتها وشاهدَ حالِ القرآن العظيم من احتمال معانٍ عظيمةٍ يؤيِّدُها . وقد بينَّا كثيراً منها ومن أسانيدها في رسالتنا : « الاعتبار فيما اشتهر على ألسنة الناس من الأخبار » في الفصل الأخير منها ، وقد استوفى ذلك الزبيدي في شرحه رحمه الله

بما لا يزيد عليه ، ولا عطرَ بعد عروس .

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه « لطائف المنن »[1] : اعلمْ أنَّ تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليست إحالةً للظاهرِ عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم . منه ما جلبت الآية له ودلَّت عليه في عرف اللسان ، وثمَّ إفهامٌ باطنة تُفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء في الحديث : « لكل آية ظهر وبطن » فلا يصدَّنَّك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالةٌ لكلام الله وكلام رسوله . فليس ذلك بإحالة ، وإنما يكون إحالةً لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا . وهم لم يقولوا ذلك بل يقرؤون الظواهرَ على ظواهرها مُراداً بها موضوعاتُها ، ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم . اهـ .

قلت : فهذا يدل على أنه لا مانعَ من إبداء ما ظهر من الفهم لمن آتاه الله فهماً في كتابه بعد تسليم ظواهر التفسير ؛ لأنَّ القرآن العظيم جعله الله المعجزة الدائمة والآيةَ القائمة على مَرِّ الزمان ، لصحَّةِ هذا الدين وصدق رسالة النبيِّ الأمين ﷺ ونبوَّته . ومن كانت هذه صفته يجب أن يتجدَّد منه معانٍ لكلِّ خلَف تقومُ بها عليهم الحجَّة . ومصداق ذلك ما في مصابيح السنة من حسانه في باب فضائل القرآن : عن الحارث عن علي رضي الله عنه أنه قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إنها ستكون فتنة » فقلت:ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبأُ ما قبلَكم ، وخبَرُ ما بعدَكم ، وحُكْم ما بينكم ، هو الفَصْلُ ليس بالهَزْل ، من تركه مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله ، ومن ابتغى الهُدَى في غيرِه أضلَّه الله ، وهو حَبْلُ الله المتين ، وهو الذِّكْرُ الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ،

---

(١) صفحة ١٨٣ . طبعة دار البشائر .

ولا تشبَعُ منه العلماء ، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبُه ، هو الذي لم ينتهِ الجِنُّ إذ سَمِعَتْهُ حتى قالوا : ﴿ **إنَّا سمعْنا قرآناً عَجَباً * يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمنَّا به** ﴾ [الجن : ١ ، ٢] ، من قال به صدق ومن عمل به أُجِر ، ومن حكم به عدَل ، **ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم** » . **إسناده مجهول** .

وفي البخاري من باب فضائل القرآن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان **الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة** » . **اهـ** .

قال القسطلاني عن الطيبي : أي ليس نبيٌّ إلا قد أعطاهُ الله من المعجزات الشيءَ الذي صفته أنه إذا شوهد اضطر الشاهدُ إلى الإيمان به . وتحريره أنَّ كلَّ نبيٍّ اختصَّ بما يُثبت دعواه من خارقِ العادات بحسَب زمانه ، كقلْبِ العصا ثعباناً ، لأن الغلبةَ في زمن موسى عليه السلام للسَّحَرة فأتاهم بما يوافقُ السِّحْر فاضطرَّهم إلى الإيمان به . وفي زمانِ عيسى عليه الصلاة والسلام الطب فجاء بما هو أعلى من الطب وهو إحياءُ الموتى . وفي زمان نبينا ﷺ البلاغة وكان بها فخارهم فيما بينهم حتى علَّقوا القصائدَ السبع بباب الكعبة تحدِّياً لمعارضتها ، **فجاء القرآنُ من جنس ما تباهَوْا فيه بما عجَزَ عنه البلغاءُ الكاملون في عصره** . **اهـ** . **قال : ويحتمل أن يكون القرآن ليس له مِثْل ، لا صورة ولا حقيقة . قال تعالى :** ﴿ **فَأْتُوا بِسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٣] بخلاف معجزات غيره ، فإنَّها وإنْ لم يكن لها مثل حقيقة يُحتمل أن يكون لها صورة قال : وليست معجزاتُه ﷺ منحصرةً في القرآن ؛ فالمرادُ أنه أعظمها وأكثرها فائدة ، فإنه يشتمل على الدعوة والحُجَّة ، ويُنتفع به إلى يوم القيامة . إذ باستمرار المعجزة ودوامها يتجدَّد الإيمان ، ويتظاهر البرهان ، وهذه بخلاف معجزات سائرِ الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فإنها ذهبَتْ بذهابهم . وأما معجزة القرآن فإنها لا تَبِيدُ ولا تنقطع ،